

من إضافات الزمخشري في باب العطف

أ. د. إبراهيم مّناد، المركز الجامعي، بمغنية، الجزائر.

تاريخ الإرسال: 2018/05/03 تاريخ القبول: 2018/05/30 تاريخ النشر: 2018/06/12

ملخص

يعدّ كشف الزمخشري من التفاسير التي أثارت العديد من الأبحاث، وأسهمت في بروز العديد من التأليف. وكل ذلك لأن الرجل كان من أهل الاعتزال، ناهيك عن اضطراره بخبايا اللغة العربية وأسرارها. كل ذلك كان في ميادين عديدة: بلاغية ونحوية وصرفية وصوتية خاصة فيما يتعلق بالقراءات القرآنية. وإذا طالعنا الأبواب النحوية وجدناها أكثر الأبواب إثارة للمسائل والأبحاث المختلفة. ومن بتن تلك المباحث ما يتردد في الكشف حول أسلوب العطف الذي جمع فيه الزمخشري بتن المعايير النحوية والمعايير البلاغية فيما يتصل بعلم المعاني في الفصل والوصل. وأثرت في هذا البحث أن استخراج مواطن التجديد النحوي في أسلوب العطف مما يحدث اختلافًا بينه وبين سابقه من النحاة، فهل كانت هناك رؤى وتوجيهات جديدة لمسائل العطف؟

الكلمات المفتاحية: التفسير - الكشف - حروف العطف - إضافات جديدة.

Abstract

Al-Zamakhshari is one of the interpretations that raised many potholes, and contributed to the emergence of many affiliations, all because the man was a retiree, not to mention the secret of the Arabic language and its secrets. All this was in many fields; rhetorical, grammatical, morphological, and special in relation to the Qur'anic readings. If we look at the grammatical sections, we find the most interesting chapters of the various questions and researches. Among these are the findings of the research on the style of kindness in which Zamakhshari combined grammatical criteria and rhetorical criteria in relation to the meanings of the meanings. In this research, it was found that the grammatical renewal was extracted in the style of flexion, which makes a difference between it and its predecessors from the grammarians. Were there new visions and directives for the issues of the prepositions of coordination?

key words: Interpretation of the Koran -al-kachaf -New additions -prepositions.

يُعدّ كشف الزمخشري من التفاسير التي أثارت العديد من الأبحاث، وأسهمت في بروز العديد من التأليف، وكلّ ذلك لأنّ الرّجل كان من أهل الاعتزال، ناهيك عن اضطلاع به بخبايا اللّغة العربيّة وأسرارها. كلّ ذلك كان في ميادين عديدة؛ بلاغية ونحوية وصرفية وصوتية خاصّة فيما يتعلّق بالقراءات القرآنية.

وإذا طالعنا الأبواب النحوية وجدناها أكثر الأبواب إثارة للمسائل والأبحاث المختلفة، ومن بين تلك المباحث ما يتردّد في الكشف حول أسلوب العطف الذي جمع فيه الزمخشري بين المعايير النحوية والمعايير البلاغية فيما يتّصل بعلم المعاني في الفصل والوصل.

وآثرت في هذا البحث أن استخرج مواطن التجديد النحويّ في أسلوب العطف ممّا يُحدث اختلافاً بينه وبين سابقه من النحاة، فهل كانت هناك رؤية وتوجهات جديدة لمسائل العطف؟

1 - واو العطف ودلالاتها على الكمال:

أورد الزمخشري في كشفه معنى آخر للواو العاطفة، وهو دلالتها على الكمال، ولم نجد، فيما وقع بين أيدينا من كتب التراث النحويّ، من أقرّ بهذا المعنى ممّن سبقوه، ولا من تبناه ممّن لحقوه.

قال تعالى: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: 1-5، ففي نظر الزمخشري وردت الواو في (والذين يؤمنون) لتكون جامعةً بين مجموعة من الصفات فيحصل الكمال في إيرادها، وله في ذلك تفسير مطوّل لا بأس من ذكره؛ يقول: «فإن قلت (والذين يؤمنون) أ هم غير الأولين أم هم الأولون؟ وإنما وسّط العاطف كما يوسّط بين الصفات في قوله: (هو الشجاع والجواد)، وفي قوله: (1)»

إلى الملك القرم وابن الهمام ❖ وليث الكتبية في المزدحم

وقوله: (2)

يَالْهَفَ زِيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّاحِبِ ❖ بح فالغانم فالآيب

قلت: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كلّ وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة؛ إيقانا زال معه ما كانوا عليه من أنّه لا يدخل الجنّة إلّا من كان هودا أو نصارى، وأنّ النار

لن تمسّهم إلّا أيّاماً معدودات، واجتماعهم على الإقرار... فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأولين، ووسط العاطف على معنى أتهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه، فإن قلت: فإن أريد بهؤلاء غير أولئك، فهل يدخلون في جملة المتّقين أم لا؟ قلت: إن عطفتهم على (الذين يؤمنون بالغيب) دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزميتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم، وإن عطفتهم على (المتّقين) لم يدخلوا، وكأنه قيل: هدى للمتّقين، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك⁽³⁾، فظاهر قوله هو دلالة الواو على الكمال في الصفات في أحد الوجوه التي ذكرها، هذا وإن كان ما ورد هاهنا لا يعبء أن يكون ربطا بواو النسق لمجموعة من الصفات المتوالية والتي تقع على معطوف عليه واحد، وقد رفض أبو حيان أن تكون الواو دالة على الكمال في معرض رده لتفسير آخر للزمخشري كما سنرى بعد قليل.

وقال القرطبي: «قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب، وقيل: الأيتان جميعا في المؤمنين، وعليه فإعراب (الذين) خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعا على الاستئناف، أي: وهم الذين، ومن جعلها في صنفين؛ فإعراب الذين رفع بالابتداء، وخبره (أولئك على هدى)، ويحتمل الخفض عطفا». ⁽⁴⁾ ونفهم من هذا أنّ الوجوه في التفسير تلاقت بين العالمين، ولكّهما اختلفت وتباينت في طريقة العرض وفي دلالة الواو على العطف بإضافة الزمخشري لمعنى الكمال.

وهذا المعنى لا يمكنه إلّا أن يكون جمعا بين المعطوفين. أمّا إن تصوّرنا ذلك، فقد يقع على الكثير من أي الذكر الحكيم ممّا يجعل دلالة الكمال مطّردة في اللغة العربية، وهذا ما لم يثبت حتى الزمخشري نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد: 3، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر: 22 - 24، فهذه كلّها صفات معطوفة في الآية الأولى، ووردت بدون رابط عطفيّ في الآية الثانية، وليس في نظرنا ما يدلّ على الكمال في الحرف العاطف في هذه الصفات، لأنّ دلالة الكمال متعلّقة بالألفاظ الدالة على الصفات لا على الحرف العاطف بينها.

وقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ آل عمران: 17، تحدّث الزمخشري عن هذه الواو هاهنا بكلام خاصّ ومُجِيب

للتَّمَعْن والنظر فقال: «والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كلِّ واحدة منها، وقد مرَّ الكلام في ذلك، وخصَّ الأسحار لأنَّهم كانوا يقدِّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده.»⁽⁵⁾ أمَّا أبو حيَّان فله رأيٌّ آخر وهو قوله: «لما ذكر الإيمان بالقول، أخبر بالوصف الدالَّ على حسب النفس على ما هو شاقَّ علمها من التكاليف، فصبروا على أداء الطاعة، وعن اجتناب المحارم، ثمَّ بالوصف الدالَّ على مطابقة الاعتقاد في القلب للفظ الناطق به اللسان، فهم صادقون فيما أخبروا به من قولهم: (ربَّنَا إِنَّا آمَنَّا) وفي جميع ما يُخبرون، وقال الزمخشري: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدلُّ على الكمال.»⁽⁶⁾ فهذا معنى جديد لا قبل لأهل النحو به، فهو مرفوض مردود على الزمخشري.

2 - ثمَّ ومعنى الاستبعاد:

والمقصود بالاستبعاد كما هو جليٌّ في تحليلات الزمخشري المنافاة بين أمرين؛ المعطوف والمعطوف عليه.⁽⁷⁾ وتحصل هذه الدلالة إذا كان الكلام الوارد بعد ثمَّ مستبعد الوقوع بالنظر إلى ما سبقها، فالمعطوف عليه بما يمثله من أفعال وأحداث يكون مهياً لعدم حصول الحكم الداخل في المعطوف.

وحريّ بنا أن نشير هاهنا إلى أننا لم نعثر على هذا المعنى للرباط ثمَّ في كتب النحاة المتقدمين. ويبدو أنّه من ابتكار الزمخشري؛ لأنّه يتردّد في كشافه بكثرة إلى درجة الاطراد، وكيف لا يكون ذلك ونحن نعلم أنّ الرجل كان مولعاً بالاحتكام إلى مبادئ المعتزلة وعلى رأسها العقل والعدل، إضافةً إلى تزوّده وإطلاعه بأسرار اللغة العربية من البيان والمعاني.

ومن المواطن التي وردت فيها ثمَّ دالة على الاستبعاد في الكشف، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: 72 - 74، قال الزمخشري: «(ثمَّ قست) استبعاد القسوة من بعدما ذكر ممّا يوجب لبين القلوب ورقتها ونحوه.»⁽⁸⁾، ومعناه أنّ القلوب قد صلبت في رفض الحقّ، ولم تذهب لآيات الله المعجزة في إحيائه للموتى، وبالتالي صارت القلوب أشدَّ قسوةً من الحجارة، وهذا الأمر في حقيقته لدى الزمخشري مستبعد بعد ما كانت الأفعال والأحداث السابقة ل«ثمَّ» في إبراز قدرة الله جلّ وعلا تنبئ بعدم بقاء قلوب هؤلاء قاسيةً وصلبةً إثر رؤيتهم

للحق، ومع ذلك بقوا على عهدهم السابق.

وردّ عليه أبو حيّان ذلك بقوله: «...وهو يذكر عنه أنّ العطف بثمّ يقتضي الاستبعاد، ولذلك قيل عنه في قوله: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)⁽⁹⁾، وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثمّ، وإنّما يستفاد من مجيء هذه الجملة ووقوعها بعدما تقدّم ممّا لا يقتضي وقوعها، ولأنّ صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر، فيه من الاعتبارات والعظايات ما يقتضي لين القلوب والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأفضليته، فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب وعدم انتفاعها بما شاهدت والتعنّت والتكذيب.»⁽¹⁰⁾

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ يَتَحَادَّوْنَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَى فَتَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: 58، فمعنى ثمّ وما يليها: «استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم، والمعنى ثمّ أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرّبين تنزيلا، لتغيير الصفة وتغيير الذات، كما تقول رجعت بغير الوجه الذي خرجت به.»⁽¹¹⁾ فهذا معنى جديد كان فضل السبق في إحداثه يعود إلى الزمخشري. وإن كنّا نقبله فلا نقبل أن تكون ثمّ وحدها دالة على الاستبعاد، وإنّما يكون هذا المعنى مستوحى من السياق العام لعناصر العطف وأركانه.

وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ آل عمران: 23، يرى الزمخشري أنّ ذلك «استبعاد لتولّهم بعد علمهم بأنّ الرجوع إلى كتاب الله واجب، ونسب التولّي إلى فريق منهم لا إلى جميع المبعدين، لأنّ منهم من أسلم ولم يتولّ.»⁽¹²⁾

ويواصل الزمخشري طريقه في تثبيت هذا المعنى وجعله قائما، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ الأنعام: 1 - 2؛ فيقول: «فإن قلت علام عطف قوله (ثمّ الذين كفروا برّبهم يعدلون)، قلت: إمّا على قوله (الحمد لله) على معنى أنّ الله حقيق بالحمد على ما خلق لأنّه ما خلقه إلّا نعمةً ثمّ الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته، وإمّا على

قوله (خلق السموات) على معنى أنه خلق ما خلق ممّا لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به مالا يقدر على شيء منه. فإن قلت: فما معنى ثم قلت استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك (ثم أنتم تمترون) استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه مُحْيِيهِمْ ومُؤْمِنِيهِمْ وباعثهم.⁽¹³⁾ ومنهم من يرى فيما رواه الزركشي عن ابن بري، أنّ ثم وردت هنا للدلالة على تفاوت رتبة الخلق والجعل من رتبة العدل، مع السكوت عن وصف العادلين.⁽¹⁴⁾

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ هود: 113، في هذه الآية أورد الزمخشري في تحليله لدلالة ثم على الاستبعاد ما يتصل بالفكر الاعتزالي؛ قال: «(ثم لا تنصرون): ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: معناها الاستبعاد؛ لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له» 15، أي إنّه سبحانه أبقي عليهم وأوجب عليهم العذاب، وهذا ليس من رأي أهل السنة والجماعة في شيء، ولذلك قال أبو حيان عن هاته العبارات هنا أنّها من ألفاظ المعتزلة.⁽¹⁶⁾

وقال جلّ ثناؤه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ النحل: 83، فالزمخشري يرى أنّ ثم هاهنا للاستبعاد؛ لأنّ الإنكار الذي حصل من قبلهم يُعدّ أمراً مستبعداً بعد حصول المعرفة؛ وذلك أنّ معرفة النعمة توجب الاعتراف بها لا الإنكار.⁽¹⁷⁾

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة: 22، فثمّ في قوله (ثمّ أعرض عنها) للاستبعاد، ومعنى ذلك في نظر الزمخشري «أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثمّ لم تنتهزها استبعاداً لتركها الانتهاز؛ ومنه ثمّ في بيت الحماسة:»⁽¹⁸⁾

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ ❖ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطّلع على شدتها» 19، وكما نرى لا يجد الزمخشري هاهنا حرجاً في التباهي بانتمائيه للمذهب الاعتزالي، وذلك حين قال (مستبعد في العقل والعدل) وهذا من مقولات المعتزلة.

وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَادِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ الجاثية: 8، قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: (ثم يصير مستكبراً)؟ قلت: كمعناه في قول القائل: (يرى غمرات الموت ثم يزورها)، وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو راكمها بنفسه ويطلب الفرار عنها، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المُقْدِم عليها بعدما رآها وعانيتها شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، ومن ثلّيت عليه وسمعتها، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها.»⁽²⁰⁾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ المعارج: 14، فمعنى ثم هاهنا للاستبعاد وهو استبعاد الإنجاء، لأنّ (ينجيه) «عطف على يفتدي، أي: يودّ لو يفتدي، ثم ينجيه الافتداء أو من في الأرض...تمنّى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيمات أن ينجيه.»⁽²¹⁾

وقال جلّ وعلا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ المدثر: 11 - 15، فقوله تعالى (ثم يطمع) «استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، يعني أنّه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة، وقيل: إنّهُ كان يقول: إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلّا لي.»⁽²²⁾

3 - دلالة ثم على التراخي والتفاوت بين الرتبتين لا في الوقت:

وهذه من الدلالات التي استحدثها الزمخشري في كشافه إلى درجة جعلها مطّردة في باب العطف، وهي أيضاً من المعاني التي لم يسبقه إلى إثباتها أحد؛ قال أبو حيان: «ولا نعلم أحداً سبقه إلى إثبات هذا المعنى لثم.»⁽²³⁾ وسنورد الآن مواطن متعددة لثم في القرآن الكريم تؤدي هذه الدلالة بحسب ما ارتآه صاحب الكشاف، وهي:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: 199، قال الزمخشري: «فإن قلت: فكيف موقع ثم قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم تأتي بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره، وبُعد ما بينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأنّ أحدهما صواب والثانية خطأ، وقيل: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس.»⁽²⁴⁾

ويرى ابن عطية أنّ ثم هاهنا ليست للترتيب، وإنّما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها متقطّعة.⁽²⁵⁾ وعليه تكون ثم هاهنا كالواو في إفادتها العطف دون ترتيب، في تقدير: وأفيضوا من حيث أفاض الناس.

وأورد أبو حيان أنّ منهم من يحمل ثم في هذا الموضع على أصلها في إفادتها

الترتيب، ويحتاج ذلك إلى تقديم وتأخير في الكلام؛ فيكون (ثم أفيضوا) معطوفاً على (واتقون يا أولي الألباب)؛ أي: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله. (26)

كما نجده يردّ على زعم الزمخشري في إفادة ثم على التفاوت بين الرتبتين، يقول: «قال الزمخشري: (فإن قلت:....) وليس الآية كالمثال الذي مثله، وحاصل ما ذكر: أن ثم تسلب الترتيب، وأنها لها معنى غيره سَمَاهُ بالتفاوت والبعد لما بعدها ممّا قبلها، ولم يجز في الآية أيضاً ذكر الإفاضة الخطأ، فيكون: ثم في قوله (ثم أفيضوا) جاءت لبعد ما بين الإفاضتين وتفاوتيهما، ولا نعلم أحداً سبقه إلى إثبات هذا المعنى لثم.» (27)

ويبدو أن تشييع الزمخشري بأفكار المعتزلة ساعده على التأويل وإعمال العقل للوصول إلى نظرات جديدة، صارت فيما بعد ثابتةً أو لنقل متداولةً.

لكنّ أبا حيان الذي عهدناه وألفناه متتبّعاً للزمخشري في كشّافه، نجده كالعادة لا يتقبّل معظم آراء صاحب الكشّاف، إمّا لانتمائه إلى أهل الاعتزال، وإمّا لعدم ورود ما قاله في دراسات السلف، مثلما هو الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: 262، يقول أبو حيان: «وعطف بثم التي تقتضي المهلة، لأنّ من أنفق في سبيل الله ظاهراً لا يحصل منه غالباً المنّ والأذى. فإذا كانت بنية غير وجه الله تعالى، لا يمنّ ولا يؤذي على الفور، فلذلك دخلت ثم، مراعاة للغالب، وإنّ حكم المنّ والأذى المتعقبين للإنفاق والمقارنين له حكم المتأخّرين، وقال الزمخشري: (ومعنى ثم إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى، وأنّ تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله:» ثم استقاموا. (28) وقد تكرر للزمخشري ادّعاء هذا المعنى لثم، ولا أعلم له في ذلك سلفاً. (29)

ويزداد إصرار الزمخشري على إثبات هذا المعنى إلى درجة الإطالة في التحليل، وإيراد نصوص طويلة لإبراز حجة ما يدّعيه، من ذلك ما نجده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يَفَاقِلُوكُمْ يُلَاقِلُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ آل عمران: 111، حيث نورد نصّاً مطوّلاً نراه جديراً بالنقل في هذا الموضع؛ يقول: «فإن قلت: هلاًّ جزم المعطوف في قوله (ثم لا ينصرون): قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الأخبار ابتداءً، كأنّه قيل: ثم أخبركم أنّهم لا ينصرون فإن قلت: أي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقاً، كأنّه قال: ثم شأنهم وقصّتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنّهم مخذولون مُنتَفِ عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: فما الذي

عطف عليه هذا الخير، قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثم، قلت: التراخي في الرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولّيهم الأدبار.⁽³⁰⁾

والظاهر أن أغلب النحاة والمفسرين على أن «ثم» في (ثم لا ينصرون) للاستئناف.⁽³¹⁾ وجاء في المحرر الوجيز ما نصّه: «قال بعضهم: إن ثم في قوله تعالى (ثم لا ينصرون)، استئناف إخبار بأنهم لا ينصرون - يريد أعداده - ولم يشرك في الجزاء فيجزم لأنه ليس مترتباً على الشرط، بل التولية مترتبة على القتال، والنصر منفي عنهم أبداً، وثم هنا ليست للتراخي في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإخبار بانتفاء النصر عنهم مطلقاً».⁽³²⁾ وعند أبي حيان ثم هنا للتراخي في الأخبار وليست للمهلة في الزمان: «فالإخبار بتولّيهم في القتال وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسرّ للنفس، ثم أخبر بعد ذلك بانتفاء النصر عنهم مطلقاً»³⁵. وبذلك يكون ردّ كلّ المزاعم التي قيلت هاهنا، يتقدّمها زعم الزمخشري، في كون معنى ثم هو الاستئناف أو الدلالة على التراخي.

ومن هذا التفاوت والتباين الذي تؤدّيه ثم، قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ تُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المائدة: 75، فقد رأى الزمخشري أن التراخي في قوله (ثم انظر) للدلالة على ما بين العجيبين؛ إذ بيّن لهم الآيات بيانا عجيبا، ولكن إعراضهم وإفكهم عنه أعجب.⁽³³⁾ ولا ندري لماذا عبّر الزمخشري هنا بعبارة «العجيبين»؛ ربّما لأنّ الحال تقتضي العجب من تبیین الآيات وتوضيحها، بل من إعراض من بيّنت له، وقد يكون صاحب الكشف مصيبا في ذلك، لأنّ من أدرك الشيء وتبيّن له لزمه التقيد به.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ الأنعام: 11، يورد الزمخشري هنا فرقا في التركيب العطفی بين الفاء وثم، فيقول: «فإن قلت: أي فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله (ثم انظروا) قلت: جعل النظر مسببا عن السير في قوله (فانظروا)، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأمّا قوله (سيروا في الأرض ثم انظروا) فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك ب«ثم»؛ لتباعد ما بين الواجب والمباح».⁽³⁴⁾ فالفرق واضح في الدلالة بين الفاء وثم، فالحرف الأوّل مفيد للتسبيب، والحرف الثاني للتراخي، إلّا أنّ أبا حيان ردّ زعم الزمخشري هاهنا في إفادة الفاء معنى السببية، فهي عنده تفيد التعقيب لا غير.⁽³⁵⁾

وقال المولى تعالى: ﴿الرَّكَتَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

خَيْرٌ هُود: 1، أي: فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب.⁽³⁶⁾ وكالعادة معنى ثم في هذا الموضع ليس التراخي في الوقت والزمان ولكن في الذكر، يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى ثم قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال، كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل كريم الفعل.»⁽³⁷⁾ فشتان بين الحالتين في الذكر، وليس الزمان والوقت أساسا في المهلة والتراخي بينهما. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ النحل: 84؛ إذ إن معنى ثم في هذا التركيب العطفى هو أنهم يمتنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أعظم، وهو منعهم الكلام، فلا يرخّص لهم الاعتذار، ولا يتمكّنون من تقديم الحجّة والإدلاء بها.⁽³⁸⁾ والتباين واضح بين الرتبتين، والتفاوت الحاصل بينهما. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: 110، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: 119، فالتباعد والتفاوت والتباين الوارد في هذه الآية يعرضه الزمخشري بقوله: «(ثم إن ربك) دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ومعنى: إن ربك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محميا منفوعا غير مضرور.»⁽³⁹⁾

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ طه: 82، فقد جعل الزمخشري ثم دالة على تباين المنزلتين وتفاوتتهما، ومثل لذلك بقولهم: (جاءني زيد ثم عمرو)، لتباين الوقتين، ومنه تكون منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه كونها أفضل وأعلى منها⁽⁴⁰⁾ ومعنى قوله (ثم اهتدى)⁽⁴¹⁾ أي لزم الهداية وأدامها إلى الموافاة على الإسلام، أو يكون المعنى بإزالة الشك في إيمانه، وقيل أيضا ثم استقام، أي أنّ الاهتداء هو الاستقامة وهو ما ذهب إليه الزمخشري⁽⁴²⁾، ومثل له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فصلت: 30، ومثل الزركشي في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: 93، وذلك للكشف على أنّ معنى (ثم اهتدى) دام على الهداية.⁽⁴³⁾ ونجد للزركشي ردّا صريحا على ما أورده الزمخشري فيما يخص هذه الآية وآيات أخر⁽⁴⁴⁾ في إفادة ثم لمعنى التباعد والتباين والتفاوت في الرتبة، يقول: «واعلم أنّه بهذا التقدير يندفع الاعتراض بأنّ ثم قد تخرج عن الترتيب والمهلة، وتصير كالواو؛ لأنّه إنّما يتم على أنّها

تقتضي الترتيب الزمني لزومًا، أمّا إذا قلنا: إنّها ترد لقصد التفاوت والتراخي عن الزمان لم يحتج إلى الانفصال عن شيء ومما ذكر من هذه الآيات الشريفة، لا أن تقول: إنّ ثمّ قد تكون بمعنى الواو. والحاصل أنّها للتراخي في الزمان، وهو المُعَبَّر عنه بالملهلة، وتكون للتباين في الصّفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله، وأنّه لو انفرد لكان كافيا فيما قصد فيه، ولم يقصد في هذا ترتيب زمني، بل تعظيم الحال فيما عطف عليه وتوقعه، وتحريك النفوس لاعتباره.⁽⁴⁵⁾

وقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى النَّبْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحج: 33، فثمّ هاهنا لتراخي معطوفها في الوقت في نظر أبي حيان والقرطبي⁽⁴⁶⁾، لكنّ الزمخشري يرى غير ذلك بعدما أثبت لها نفس المعنى؛ إذ يقول: «وتمّ للتراخي في الوقت، فاستعيرت للتراخي في الأحوال والمعنى أنّ لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنّما يعتدّ الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال: 67، وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطا في النفع...»⁽⁴⁷⁾

وقد يتكرّر ورود «ثمّ» في تركيب واحد وجملة واحدة مثل بقية روابط العطف، وهنا أيضًا يذهب الزمخشري إلى إفادتها التفاوت في الرتبة ما بين الحالات المختلفة، باختلاف الأزمنة، وذلك مثل ما ينصّ عليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ الفرقان: 45 - 46 بقوله: «فإن قلت: ثمّ في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت.»⁽⁴⁸⁾

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ الصافات: 67 - 68، علّق على مواقع ورود ثمّ بقوله: «فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله (ثمّ إنّ لهم عليها لشوبا) وفي قوله (ثمّ إنّ مرجعهم) قلت: في الأول وجهان، أحدهما أنّهم يملأ من البطون من شجر الزقوم وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلّا بعد ملي تعذيبًا بذلك العطش ثمّ يستقون ما هو أحرّ وهو الشراب المشوب بالحميم، والثاني أنّه ذكر الطعام بتلك الكراهية والبشاعة ثمّ ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بتمّ للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه، ومعنى الثاني أنّهم يذهب بهم عن مقامهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدرجات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ويسقون بعد ذلك ثمّ يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بيّن.»⁽⁴⁹⁾ ونحن نرى مدى إصرار

الزمخشري على إثبات هذا المعنى لثم في أي الذكر الحكيم، ولعل ذلك كله يرجع في الأصل إلى التشبّع بمبادئ المعتزلة وتعويلهم على العقل بالدرجة الأولى.

ويبدو ذلك جلياً أيضاً من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّوْنَ﴾ الزمر: 6، حيث يقول: «فإن قلت: ما وجه قوله (ثم جعل منها زوجها) وما يعطيه من معنى التراخي قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصبتها، إلا أنّ إحداهما جعلها الله عادةً مستمرةً والأخرى لم تجر بها العادة ولم تُخلَقْ أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيا عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود، وقيل ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدث ثم شفعها الله بزواج، وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذرّ ثم خلق بعد ذلك حواء.»⁽⁵⁰⁾

فرغم أنّ الظاهر هاهنا أنّ ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان بمعنى المهلة⁽⁵¹⁾، إلا أنّ الزمخشري كعادته ذهب إلى أنّ ثم جاءت هنا للتفاوت بين الرتبتين والحالتين المخبر عنهما.

ويواصل الزمخشري مضيه نحو التأكيد على هذا المعنى بتحليلات طويلة، ثم إنها دقيقة جداً يصعب في بعض الأحيان إدراكها كلياً، مثلما يعرضه لنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات: 15 بقوله: «فإن قلت ما معنى ثم هاهنا وهي للتراخي، وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتقاء الريب، قلت: الجواب على طريقتين: أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربّما اعترضه الشيطان أو بعض المضللين بعد تلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلّم يقينه أو نظرهم نظراً غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله (ثم استقاموا)، والثاني أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهاً على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غرضاً جديداً.»⁽⁵²⁾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ نوح: 8-9،

فثمّ هنا في نظره لمعنى تباعد الأحوال وتفاوتها والدلالة على التباين دون اعتبار الزمان، لأنّ الجهر أغلظ من السرّ، والجمع بينهما أكبر من كون كلّ واحد منفرداً.⁽⁵³⁾

ومن المفسّرين المتأخّرين من تأثّر بما أورده الزمخشري في كشّافه على غرار ابن عاشور، قال صاحب الكشّاف في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرْتُمْ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرْتُمْ نَظَرْتُمْ عَبَسَ وَبَسَرْتُمْ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ المدثر: 18 - 23 «فإن قلت: ما معنى (ثمّ) الداخلة في تكرير الدعاء؟ قلت: الدلالة على أنّ الكرة الثانية أبلغ من الأولى، ونحوه قوله: (ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي)، فإن قلت: ما معنى المتوسطّة بالأفعال التي بعدها؟ قلت: الدلالة على أنّه قد تأنّى في التأمل والتمهّل، وكأنّ بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد، فإن قلت: فلم قيل (فقال إن هذا) بالفاء بعد عطف ما قبله بثمّ؟ قلت: لأنّ الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلّب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبّث فإن قلت: فلم لم يتوسّط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت: لأنّ الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكّد.»⁽⁵⁴⁾ وقال ابن عاشور: «والعطف بثمّ يفيد أنّ جملتها أرقى رتبةً من التي قبلها في الغرض المسوق له الكلام، فإذا كان المعطوف بها عين المعطوف عليه أفادت أنّ معنى المعطوف عليه ذو درجات متفاوتة... وقوله (ثمّ نظر ثمّ عبس وبسر ثمّ أدبر واستكبر)... فالتراخي تراخي رتبة لا تراخي زمن لأنّ نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مقارنة لفكّيره وتقديره.»⁽⁵⁵⁾، والتأثّر واضح وجليّ بآراء الزمخشري.

وقال تعالى: ﴿كَأَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ النّبا: 4 - 5، ففي ثمّ دلالة على أنّ الوعيد الثاني أبلغ وأشدّ من الوعيد المتقدّم 61. ويرى الزمخشري في سورة الأعلى أنّ ثمّ للتراخي في الرتبة والتباين في الشدّة؛ لأنّ «الترجيح بين الحياة والموت أقطع من الصّلي، فهو متراخ عنه في مراتب الشدّة، والمعنى: لا يموت فيستريح ولا يحي حياة تنفعه.»⁽⁵⁶⁾

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ البلد: 17، فثمّ هاهنا لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الزمان والوقت، بل التباين والتفاوت أولى؛ لأنّ الإيمان مقدّم على ما سواه من الأمور، ولا تكون الأعمال صالحةً إلّا به.⁽⁵⁷⁾

ورفضت عائشة عبد الرحمان هذا التأويل لحرف ثمّ في هذه الآية وما ذهب إليه الكثير من مفسّري القرآن الكريم في جعل الإيمان منفصلاً عمّا قبله، وارتأينا أن نورد النصّ الكامل الذي أورده للتوضيح؛ قالت: «وقف المسّرون طويلاً عند عطف الإيمان على فكّ رقبة، بحرف «ثمّ» الذي يفيد الترتيب مع التراخي، فتأوّلوه بما يخرج به عن صريح سياقه وظاهر معناه، ليفيد إبعاد الإيمان عمّا قبله، والتراخي في الرتبة لا في

الترتيب، قالوا: إنَّ ثمَّ جيء بها هنا قصداً إلى إبعاد الإيمان عن فكِّ رقبة أو إطعام يтим أو مسكين، كيلا يكون معها في رتبة واحدة...وبعيدا عن كلِّ هذه التأويلات، نأخذ حرف «ثمَّ» على صريح معناه في السياق، فنفهم أنَّ القرآن إذ يرتَّب مراحل اقتحام العقبة الجدير بالإنسان المميَّز أن يكابده، يضع العتق والتراحم خطوتين سابقتين على الإيمان لازمتين له، مُقرِّراً بذلك أنَّ الإيمان لا يُرجى فيمن يتسلَّط على عباد الله بالاسترقاق، أو بتحرُّر قلبه فينطق في يوم ذي مسغبة، جوعٌ يтим ذي مقربة أو مسكين ذي متربة، فلا موضع لإيمان صادق، من مثل هذا الجاحد القاسي، يستعبد الخلق ويغفل عن حقِّ اليتيم القريب أو المسكين، في يوم مجاعة.»⁽⁵⁸⁾

وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ التكاثر: 3- 4، جاءت ثمَّ للدلالة على أنَّ الإنذار الثاني أبلغ من الأوَّل وأشدَّ، فثمَّت تفاوت وتباين وتباعد؛ «كما تقول للمنصوح: أقول لك ثمَّ أقول لك: لا تفعل، والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدأمكم من هول لقاء الله، وإنَّ هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم.»⁽⁵⁹⁾

وهذا نكون قد فرغنا مما استجدَّ من زيادات في باب العطف عند الزمخشري في كشَّافه، رأينا أنَّها جديرة بالعرض والدراسة، ورصد ما يعضدها من النصِّ القرآني مشفوعاً بأقوال المفسِّر. ونحسب أنَّ كلَّ تلك التخريجات إنَّما وقعت بفعل توظيف الزمخشري لمذهبه الاعتزالي في توجيه النصِّ القرآني، وحمله على مبادئ العقل والمنطق.

الهوامش: ش:

- (1) ينظر: الكشَّاف، 1/155، والإنصاف، 2/9، والبحر، 1/326، والتبيان في البيان، ص 103، والخزانة، 1/451.
- (2) البيت لسلمة بن هذيل، وهو من شواهد: الجني الداني، ص 64. والكشَّاف، 1/156، والبرهان، 4/259، وشرح حماسة أبي تمام، 1/136، وشرح أبيات مغني اللبيب، 4/30، وتفسير ابن عاشور، 30/44.
- (3) الكشَّاف، 1/155-157.
- (4) الجامع، 1/175. وينظر: الطبري، 1/105، والمحزَّر، 1/148-149، والبحر، 1/67، والتفسير الكبير، 1/36.
- (5) الكشَّاف، 1/536.
- (6) البحر، 3/57. وينظر: المحزَّر، 3/49-50.
- (7) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص 238.

- (8) الكشف، 1/286. وينظر: المحرّر، 1/353، والبحر، 1/432، والقرطبي، 1/430.
- (9) قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ الأنعام: 1.
- (10) البحر، 1/422.
- (11) الكشف، 1/291-292. وينظر: المحرّر، 1/378-379، والبحر، 1/466، والقرطبي، 2/20-21.
- (12) المصدر نفسه، 1/541. وينظر: البحر، 3/81، والقرطبي، 6/48-49.
- (13) الكشف، 2/321. وينظر: البرهان، 4/235.
- (14) البرهان، 4/234.
- (15) الكشف، 3/267.
- (16) البحر، 6/221. وينظر: المحرّر، 7/415، والقرطبي، 9/95.
- (17) الكشف، 3/460، وفيه: «(ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها، وقولهم: هي من الله، ولكنها بشفاعه آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله. وإتما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله، وأنه أجراها على يد فلان وجعله سببا في نيلها». وينظر: المحرّر، 8/488، والبحر، 6/578-579، والقرطبي، 10/147.
- (18) البيت لجعفر بن عتبة الحارثي، وهو من شواهد: الكشف، 2/407، 5/37-482، والبحر، 8/440، وديوان الحماسة لأبي تمام، 1/26، وشرح الحماسة لأبي تمام، 1/209.
- (19) الكشف، 5/37-38. وينظر: البحر، 4/440.
- (20) المصدر نفسه، 5/482.
- (21) الكشف، 6/207. وينظر: البحر، 10/274.
- (22) المصدر نفسه، 6/255.
- (23) البحر، 2/302.
- (24) جاء في تفسير المراغي: «فالمغني عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد تحقيقا للمساواة وتركيا للتفاخر وعدم الامتياز لأحد عن أحد، وذلك من أهم مقاصد الدين». 2/103.
- (25) الكشف، 1/412.
- (26) المحرّر، 2/177.
- (27) البحر، 2/301. وينظر: الرازي، 5/197.
- (28) البحر، 2/301-302.
- (29) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فصلت: 30، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف: 13.
- 30/ ينظر: الكشف، 1/497.

- (31) لبحر، 2/660. وينظر: المحرّر، 2/428، والقرطبي، 5/279-280.
- (32) الكشف، 1/609-610.
- (33) ينظر: معاني الفراء، 1/229، وإعراب النحاس، 1/400، والقرطبي، 6/165؛ وفيه: «مستأنف فلذلك يثبت فيه النون». فورود النون دليل على الجزم وبالتالي هو مرفوع على الابتداء.
- (34) المحرّر، 3/269 (الهامش 3).
- (35) البحر، 3/304، وفيه أيضا: «...ثم للتراخي، فلذلك لم تصلح في جواب الشرط، والمعطوف على الجواب كالجواب، وما ذهب إليه هذا الذهاب خطأ، لأنّ ما زعم أنّه لا يجوز قد جاء في أفصح كلام، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد: 38، فجزم المعطوف بثم على جواب الشرط».
- (36) الكشف، 2/277، وينظر: المحرّر، 4/531-532، والبحر، 4/333.
- (37) الكشف، 2/327، اف،
- (38) البحر، 4/446. وينظر: المحرّر، 5/135.
- (39) القرطبي، 9/5. وينظر: المحرّر، 7/234، والبحر، 6/120.
- (40) الكشف، 3/181، اف،
- (41) المصدر نفسه، 3/461. وينظر: المحرّر، 8/488، والبحر، 6/579، والقرطبي، 10/147.
- (42) الكشف، 3/477. وينظر: المحرّر، 8/523، والقرطبي، 10/174.
- (43) الكشف، 4/101، اف،
- (44) ينظر: البحر، 7/365، والقرطبي/ 11/146.
- (45) الكشف، 4/101.
- (46) البرهان، 4/234.
- (47) ينظر الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف: 13، ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ المدثر: 18 - 20، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ البلد: 17.
- (48) البرهان، 4/235-236، ان،
- (49) ينظر: البحر، 7/507، والقرطبي، 12/54.
- (50) الكشف، 4/84. وقال الزجاج: «فإنّ ثم للعطف على تراخ، وقد عطف في الآية (النحر) الذي هو بأخرة، أو (الطواف) الذي هو الخاتمة، على الانتفاع بما يقام في المناسك في الدين، أو بمنافع البدن والهدايا في الدنيا على القولين». إعراب الزجاج، 1/105.
- (51) الكشف، 4/354. وينظر: المحرّر، 11/45، والبحر، 8/114.
- (52) المصدر نفس، 5/214، ه،
- (53) جاء في إعراب الزجاج، 1/100: «أي ثم خلقكم منها، قيل: معناها خلقكم من نفس وحدها

- جعل الزوج منها بعد التوحيد، فأفادت واحدة هذا المعنى». وينظر: معاني النحاس، 6/153.
- (54) الكشف، 5/289-290.
- (55) معاني النحاس، 6/152.
- (56) الكشف، 5/588.
- (57) الكشف، 6/214.
- (58) لمجهول. شطره الأول: (ثَلَاثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلِّمِي). وهو من شواهد: الكشف، 6/179-257، والفاخر، 2/819.
- (59) الكشف، 6/257.
- (60) تفسير ابن عاشور، 29/287. وينظر: البحر، 10/330-331.
- (61) الكشف، 6/294.
- (62) الكشف، 6/359.
- (63) المصدر نفسه، 6/379. وينظر: تفسير ابن عاشور، 30/318.
- (64) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرقي، ص 189-190.
- (65) الكشف، 6/424. وينظر: إعراب الزجاج، 1/104-105.

